اقتحم العرب المحيط
قبل أن يقتحمه كلمبس
للآنسة دولت حسن الصغير

نشر فى مقتطف فبراير الماضى نص خطبة ألقاها الأب الفاضل أنستاس الكرملى ، بين فيها أن أبناء يعرب القدامى اختلفوا إلى جزر القصدير ببحر المانش ، وعرفوا تيار الخليج Golf Stream واتخذوه لهم ناقلا إلى تلك الربوع المعروفة الآن باسم المكسيك . واستدل على ذلك من الأسماء العربية للحيوان والطير التى تعرف بها إلى اليوم فى تلك البقاع .

وكنت أحسب قبل مطالعة كلمته الرائعة ، أنه سيورد من المراجع العربية ما يثبت أن من أبناء قحطان من اقتحم البحر المحيط ليرى ما به من الأخبار والعجائب ويقف على نهايته . غير أن الأب — أبقاه الله ذخراً للعروبة — اعتمد فى كل ما قرره على مصنفات الأغراب فحسب ، إلا ما وجده نبها بنفسه .

وليس لى أن أفند ما جاء به العلامة من تحقيقات لغوية ، فما إلى هذا رميت فى هذا المقال — ولكننى سأعنى بالتحدث عمن ركب من العرب البحر المحيط قبل أن يركبه كلمبس ، معتمدة على ما جاء بالمصادر العربية

ثبت قطعاً أن خرستوف كلمبس ليس أول من حط رحاله بالدنيا الجديدة ، ولكن رحلته إليها هى التى فتحت أعين الناس على هذا العالم الجديد ، فبدئ من بعده الظعن إليه والاستعمار .

حدثنا الأب أنستاس بنبأ رحلة الراهب برندان إلى جزيرة إيسلندة (المعروفة عند العرب باسم ثولى) ، وجزائر الكنارى (الخالدات) ، ثم نزوله على الساحل الأمريكى فى النصف الثانى من القرن السادس ، كما حدثنا بخبر بعض الرهبان الأرندليين — الذين كانوا يدهشون لركوب العرب تيار الخليج القادم من المكسيك — ونزولهم فى القرن الثامن الميلادى إلى سواحل أمريكا الشرقية . غير أن التاريخ غمط حقوق بعض الرواد المغامرين من يعرب ، الذين ركبوا الأهوال محاولين اختراق الخضم المحيط المعروف فى ذلك الحين باسم بحر الظلمات

الكرة الأرضية والبحر المحيط عند العرب :

نقل العرب كتاب المجسطى لبطليموس القلوذى فى مطلع العصر العباسى ، وقالوا فى أزياجهم وكتبهم الجغرافية إن الأرض

أو الوضيع ليخدم نفسه ويخدم الجميع . والسفالة فى الموضع أو العلو فيه ، والعلانية أو الخفاء كلها نظرات اعتبارية فى الظاهر ، والحقيقة أن نصيب العمل واحد ، والنتيجة واحدة : هى حياة الشجرة بحياة أجزائها ، وحياة الأجزاء بحياة الأم .

وينبغى ألا ينظر جزء من الشجرة لآخر ، وإنما ينظر لليد التى وضعته فى كل ليؤدى دوره وخدمته ، ويكفى عزاء لما سفل واختفى أن حياته كثيراً ما تكون أثبت وأدوم مما علا .

ويكفى عزاء لما علا وارتفع عن سرعة فنائه أنه أجل وأشهر .

وكلا المنهجين جدير أن يحار بينه وبين قسيمه الاختيار .

ألا إننا ممثلون نؤدى أدواراً يرسمها ويحملنا عليها مؤلف رواية الحياة ومخرجها ، بديع السموات والأرض ! فينبغى أن نعرف مواضعنا الحقيقية من الكون ، وأدوارنا فيه نؤديها على أكمل وجه ، ثم نختفى وراء « الكواليس » إلى يوم إصدار الرواية الأخرى التى سنؤديها فى المسرح الأكبر ، فى الكون الواسع !

* * *

فقط اضمنوا لكل عامل بارع مهما كانت مواد عمله خسيسة أو كريمة مكافأة وتكريماً وتعظيماً لمواهبه . ولا تقصروا اهتمامكم وتمجيدكم على الأجزاء الرفيعة الملونة المزوقة من شجرة الإنسانية : والساسة والحكام والأثرياء ، ومن إليهم من الذين خصهم المجتمع الجاهل بالاحترام ، بل امنحوا وقدموا ذلك الاهتمام والتمجيد لكل عامل بارع فى عمل من أعمال الحياة الإنسانية ، تتفتح لكم أبواب من سعادة الحياة ما كنتم تتصورون أن وراءها شيئاً ذا قيمة وتأثير فى حياتكم يعادل تأثير السياسة والحكم وما إليهما .

اقضوا على تخصيص الحكام وذوى السلطان والثراء بتعظيمكم وخشيتكم ، وانظروا لغيرهم كذلك من العمال والكناسين وغيرهم وكرموهم كراستهم ، فان لهم فى الدولة أثراً لا بد منه كآثار « أصحاب الدولة » ! .

عبد المنعم محمد خلاف

كروية . جاء فى مروج الذهب[1] للمسعودى : « ذكروا أن الأرض مستديرة ، ومركزها فى وسط الفلك ، والهواء محيط بها من كل الجهات ، وأخذوا عمرانها من حدود الجزائر الخالدات فى بحر أقيانوس إلى أقصى عمران الصين » و « علموا أن الشمس إذا غابت فى أقصى الصين كان طلوعها على الجزائر العامرة المذكورة التى فى بحر إقيانوس . وإذا غابت فى هذه الجزائر كان طلوعها فى أقصى الصين . وذلك نصف دائرة الأرض ، وهو طول العمران الذى ذكروا أنهم وقفوا عليه » . ولعمرى إن هذا تحديد دقيق لما يعرف اليوم جغرافيا باسم نصف الكرة الشرقى .

وقال المسعودى أيضاً : « إن أقصى العمران فى المشرق إلى حدود بلاد الصين والسيلى إلى أن ينتهى إلى بحر أقيانوس المظلم المحيط . وأقصى عمران المغرب ينتهى إلى بحر أقيانوس المحيط أيضاً »[2] .

فكأن الأقيانوس المحيط كان — بحسب ما عرفوه — متصلا من أقصى العمران فى المشرق إلى أقصى العمران فى المغرب . وهو مايعرف اليوم جغرافيا باسم نصف الكرة الغربى .

وتواترت الأخبار قديما بأن بحر الظلمات هذا لا تدرك غايته ، ولا يعلم منتهاه . وأنه بحر لا تجرى فيه جارية ولا عمارة . جاء فى كتاب الشريف الإدريسى[3] — نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق — . « ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ، ولا وقف بشر فيه على خبر صحيح ، لصعوبة عبوره ، وظلام أنواره ، وتعاظم موجه ، وكثرة أهواله ، وتسلط دوابه ، وهيجان رياحه . وبه جزائر كثيرة منها معمورة وغير معمورة » .

وكان يعزز ما تواتر عليه الناس عنه ، أسطورة مأثورة عن قدامى اليونان تقول بأن هرقل بنى أعمدة من النحاس والحجارة . حداً بين بحر الروم والأقيانوس . وعلى أعلاها كتابه وتماثيل مشيرة بأيديها أن لا طريق ورائى لجميع الداخلين إلى ذلك البحر المحيط . وأشار المسعودى إلى هذه النصب بما نصه[1] . « وعلى هذا البحر المحيط مما يلى الأندلس ، جزيرة تعرف بقادس Cadix مقابلة لمدينة شذونة .. وفى هذه الجزيرة منارة عظيمة عجيبة البنيان ، على أعاليها عمود عليه تمثال من النحاس يرى من شذونة وورائها لعظمه وارتفاعه . ووراءه فى هذا البحر على مسافات معلومة تماثيل أخرى فى جزائر يرى بعضها مع بعض ، وهى التماثيل التى تدعى الهرقلية ، بناها فى سالف الزمان هرقل الجبار ، تنذر من رآها أن لا طريق وراءها ولا مذهب ، بخطوط على صدورها بينة ظاهرة ببعض الأقلام القديمة ، وضروب من الإشارات بأيدى هذه التماثيل تنوب عن تلك الخطوط لمن لا يحسن قراءتها . صلاحا للعباد ، ومنفعاً لهم من التغرير بأنفسهم فى ذلك البحر » .

وكان الحكماء والجغرافيون من العرب ، يعرفون أن هذا البحر موصل إلى الهند . فقد جاء فى كتاب السماء والعالم[2] لأرسطو فى الدليل على صغر الأرض أن الموضع الذى يدعى أصنام هرقل ، يختلط بأول حد من حدود الهند . ولذلك قالوا إن البحر واحد »[3] .

رواد المحيط من العرب

واقتحام أبناء قحطان بحر الظلمات ، وركوبهم أهواله أمر لا مرية فيه ، وقد بسط الأب أنستاس الدليل على ذلك نقلا عن هيرودوتس وعن استرابون . ونحن بدورنا نبسط الدليل نقلا عن المصادر العربية .

جاء فى مروج الذهب صفحة ٧١ فى ذكر الكلام عن البحر المحيط « وله أخبار عجيبة ، وقد أتينا على ذكرها فى كتابنا (أخبار الزمان)[4] فى أخبار من غرر وخاطر بنفسه فى ركوبه ، ومن نجا

(١) ص ٥١ .

(٢) وجاء فى كتاب التنبيه والاشراف للمسعودى فى ذكر بحر أوقيانوس ص٥٩ « وأكثر نهاياته مجهولة عند بطليموس (القلوذى صاحب المجسطى) وغيره . فانه يبتدىء من نهاية العمارة فى الشمال إلى أن يصير إلى المغرب . وينتهى إلى نهاية العمارة فى الجنوب وليس له فى غربيه ولا شماليه نهاية محدودة . وفى هذا البحر الجزائر السماة بطانية وهى اثنتا عشرة جزيرة . ويتصل ببحر الصين مما يلى الزابج وجزائر المهراج وشلاهط وهرلج . الخ » .

(٣) ألف الشريف الادريسى لروجر الثانى ملك صقلية كتابه فى الجغرافية سنة ٥٤٨ هـ وقد نشر فى أوربا بعض قطع منه .

(١) التنبيه والاشراف ص ٦٠

(٢) نقل هذا الكتاب ابن البطريق ، وتامسطوس شرح الكتاب كله ، نقله وأصلحه يحيى بن عدى — أخبار الحكماء للقفطى ص ٣٠ .

(٣) التنبيه والاشراف ص ٦١ .

(٤) كتاب أخبار الزمان ، ومن أباده الحدثان ، من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة » هو أكبر وأهم كتاب للمؤلف الجغرافى الكبير أبى الحسن على بن الحسين المسعودى ، المتوفى سنة ٣٤٥ هـ . تعب كثيرمن الباحثين فى التنقيب عنه . ولاريب أن فقده خسارة كبيرة للعلم والبحث والتأريخ . ولا توجد منه — فيما نعرف — إلا نسخة واحدة خطية ببلاد شنقيط بالصحراء الافريقية . والشنقيطيون يضنون بها على العلم والحقيقة والتاريخ . ترى متى يسمح الزمان بنشرها .

منهم ومن تلف ، وما شاهدوا منه وما رأوا » .

وإذا لم يحفظ لنا التاريخ قول المسعودى فى أخبار من ركب هذا البحر ، فقد ذكر لنا الإدريسى فى كتابه الجغرافى النفيس قصة الإخوة المغرورين أو المغررين الذين خرجوا من لشبونة ، وضربوا فى عرض المحيط ، ثم عادوا يقصون على الناس مشاهداتهم. ولعلهم حاولوا عبثاً إقناع القوم بوجود دنيا جديدة وآفاق حديثة ، وراء لجج المحيط ، فرماهم البعض بالغرور والبعض بالتغرير . فصنيعهم ولا ريب ، كانت معروفة قبل المسعودى — والأرجح أنها وقعت فى القرن الثالث الهجرى — التاسع المسيحى — وتناقلها الناس بعد ذلك فلحقها شىء من التحوير والتبديل ، شأن جميع الروايات التى تجرى على الألسن وتدخل فى عداد الأساطير . لذلك سنورد القصة كما استقاها الإدريسى من الأفواه فى منتصف القرن السادس الهجرى — الثانى عشر الميلادى .

قال فى كتاب — نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق — .

« من مدينة لشبونة ، كان خروج المغررين فى ركوب بحر الظلمات ، ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه كما تقدم ذكرهم . ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمه ، درب منسوب إليهم يعرف بدرب المغررين ، إلى آخر الأبد . وذلك أنه اجتمع ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركباً جمالا ، وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر . ثم دخلوا البحر فى أول طاروس (كذا) الريح الشرقية . فجروا بها نحوا من ١٢ يوماً ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كدر الرائح ، كثير القروش ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف . ثم فردوا قلاعهم فى اليد الاخرى ، وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب ١٢ يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ، ولا ناظر إليها . فقصدوا الجزيرة ، فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى . فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها . فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب ١٢ يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها إلى عمارة وحرث . فقصدوا إليها ليروا ما فيها . فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم فى زوارق هناك . فأخذوا وحملوا فى مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بها فى دار . فرأوا رجالا شقراً زعراً شعور رؤوسهم سبطة ، وهم طوال القدود ، وانسائهم جمال عجيب .

فاعتقلوا فيها فى بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى ؛ فسألهم عن حالهم وفيما جاءوا ، وأين بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم . فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك .

فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك . فسألهم عما سألهم الترجمان عنه ، فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ، ويقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان : خبر القوم أن أبى أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء ، وانصرفوا فى غير حاجة ولا فائدة تجدى .

ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً ، وأن يحسن ظنهم بالملك ففعل . ثم صرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جرى الريح الغربية ، فمر بهم زورق ، وعصبت أعينهم ، وجرى بهم فى البحر برهة من الدهر ؛ قال القوم : قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جىء بنا إلى البر فأخرجنا ، وكتفنا إلى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس ، ونحن فى ضنك وسوء حال من شد الأكتاف ؛ حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا ، فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلونا من وثاقنا ، وسألونا ، فأخبرناهم بخبرنا . وكانوا برابرة . فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا لا ، فقال : إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : واأسفى . فسمى المكان إلى اليوم أسفى ، وهو المرسى فى أقصى المغرب »

والذى نستخلصه من رواية الإدريسى ، أن الإخوة الذين نعتوا ظلما باسم المغررين أو المغرورين ، ركبوا البحر المحيط من لشبونه عاصمة البرتغال الحالية ، فضربوا فى عرضه غربا ، ثم انعطفوا نحو الجنوب ، فوطئوا أرض جزيرة بها غنم وتين برى ، بعد مسيرة أربعة وعشرين يوما (؟) . ونحن نستبعد أن تكون جزيرة الغنم هذه إحدى جزر اللازورد (أزوره) لأنها تقع غرب

لشبونة لا إلى جنوبها الغربي ؛ ولأنها جزر مسكونة من قديم الزمان عرفها القرطاجنيون والنورمانديون والعرب ، كما جاء في دائرة المعارف الفرنسية . وقد هاجر إليها فريق من عرب أسبانيا بعد طردهم من الأندلس.

والذي نظنه ، هو أن هؤلاء الإخوة حطوا رحالهم في إحدى جزر برمودة أو جزر الانطيل ، إن لم يظعنوا إلى أحد أنحاء المكسيك ، بلاد التين البري « وفصائل الصبير » ، والتي كانت تزخر بقطعان الماشية المعروفة عند الغربيين باسم البافالو. (بالفرنسية Bison) أو قطعان اللاما Lama إحدى فصائل الأغنام الأمريكية. والذي استوقفنا فيما تواتر على ألسنة الناس في هذه القصة هو ذكر الغنم والتين البري . أما الغنم فكانت الدنيا الجديدة عامرة بقطعان البافالو واللاما — وكاد النوع الأول ينقرض الآن لأن المستعمرين الأوربيين أكثروا من صيده للانتفاع بجلده — وأما التين البري فنحسب أنه تعبير وصفي لفصائل العائلة الصبارية التي تنبت في أمريكا الوسطى عامة وسواحل المكسيك خاصة ، وهي مشهورة بها كشهرة مصر بنيلها وأهرامها . أفيحق لنا أن نظن أن ما هبط إليه الإخوة « المغامرون » كان أحد أنحاء المكسيك التي منها يخرج تيار الخليج ويعرج فيها ؟

هذا رأي لا يحمل إلا على محمل الظن .. والله أعلم .

وهناك قصة لمغامر آخر اقتحم البحر المحيط ، ولا يعرف إلا الله مصيره ومن تبعه . في النصف الأول من القرن الثامن الهجري (أوائل القرن الرابع عشر الميلادي) يحدثنا ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار عن الملك موسى بن أبي بكر أحد ملوك « مالي » في السودان الغربي ، وكان معاصرا لصاحب مسالك الأمصار في أيام الملك الناصر بن قلاوون.. قال « قال ابن أمير حاجب والي مصر ، عن الملك موسى ابن أبي بكر : سألته عن سبب انتقال الملك إليه فقال : إن الذي قبلي كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك . فجهز مئين من السفن ، وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين ، وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته ، أو تنفد أزوادهم . فغابوا مدة طويلة ، ثم عاد منها سفينة واحدة ، وحضر مقدمها ، فسألته عن أمرهم فقال : سارت السفن زمنا طويلا حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة واد له جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم ، فرجعت بسفينتي . فلم يصدقه .. فجهز ألفي سفينة ، ألفاً للأولاد ، وألفاً للأزواد . واستخلفني، وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك . وكان هذا آخر العهد به وبمن معه » . فهل وصل هذا الملك المغامر بقافلته العريضة المزودة إلى بر السلامة أم ابتلعته ومن معه لجج المحيط ؟ لا نحسب أن إقدام هذا الملك الجسور على اقتحام البحر كان من قبيل الظن بان للمحيط غاية تدرك ، فلربما كان لديه من الأنباء والوقائع مادعاه أن يكذب مقدم السفينة العائدة ، ويركب أهوال البحر بألفي سفينة ليصل إلى غايته .

ومما يغلب على الظن أن كلمبس وقف على خبر الإخوة المغرورين ، وعرف أنهم هبطوا إحدى الجزر فيما وراء المحيط — ولعله كان على علم بنبأ رحلة برندان — ولا جدال في أنه اطلع على ترجمات الكتب الجغرافية العربية التي تقول بكروية الأرض ، وبأن البحر المحيط موصل إلى الهند . ثم استطاع أن يقنع الملكة إزابلة ، وسار بسفنه الشراعية الثلاث في ٣ أغسطس سنة ١٤٩٢ متخذا سبيله في المحيط غربا ، ثم جنوبا بغرب ، حتى وصل في ١٢ أكتوبر إلى جزيرة غوانى هانى (التي عرفت فيما بعد باسم سان سلفادور) وكأن معاصريه لم يجدوا فيما أتى به بدعا ، ولم يروا فيه أول مقتحم لبحر الظلمات. فضرب لهم مثل البيضة المعروف ، ومات في بلد الوليد عام ١٥٠٦ آسفا محسورا .

وبعد فهذه حقائق مستقاة من المصادر العربية ، تثبت أن أبناء يعرب جابوا بحر الظلمات قديما . على أن أخبار مقتحميه منهم وما شاهدوا منه وما رأوا لم تلق من الناس والمؤرخين الأقدمين اهتماماً كبيرا . وهناك ولا ريب كثير من رواد المحيط الناطقين بالضاد ركبوا في قوافل بحرية كبيرة مثل ملك «مالي» ، بيد أنهم لم يجدوا من يؤرخ لهم . ولا ريب أن بعضهم حط رحاله في ربوع أمريكا الوسطى وجزارها . لذا لا نعجب أن رأينا فيها كثيراً من الأسماء العربية العائدة إلى الحيوان والطير.

(الاسكندرية) **رولت حسن الصغير**